المواقف . لم يمض غير بضعة أجيال حتى سقطت مملكة اسرائيل بيد آشور وتعرض التابوت لمصير مشابه . وتكرر الحدث في أورشليم وكأننا بالقدر يسخر من محاولة الانسان الخلودية فيمني الشعب الذي تمسك بخلوده وخلود الهه بأقصر الآجال . على يد الفلسطينيين سقط الرب في المعركة ، وعلى يد البابليين سقط الشعب . ويبدو لاول مرة ان صدمة سبي بختنصر هي الصدمة التي غرست الاثم ، وهي كذلك لو لم تكن أقرب الى الشعور الواعي . ان من الضروري لنا ان نفتش عن البذور في الاعماق المنسية من هذا التاريخ لنلتقي بحادثة بن عيزر . السبي هو الحدث الذي أطلق شجون الحادثة من عقالها فسمعنا العويل نغمة مكررة على ألسنة حكماء اسرائيل .

يبدو ما أوردناه باقتضاب تأملا نظريا صرفا وقد يبدو للبعض مغاليا في افتراضاته وتعليلاته . ولكن قبول التفسير او رفضه لن يؤثر في حقيقة الوقائع . لقد كانت الوقائع الموضوعية لظاهرة الاثم وذهانها الكآبي هي البداية ومنها خرجنا الى التعليل .

تعطينا الصور والرموز التي انهالت من ألسنة شخصيات العهد القديم الابعاد الاثمية المعذبة بوضوح . تطالعنا هنا صور البغاء والعهر والمهانة والحقارة والقذارة والغائط والدم والجيفة . عندما تزوج النبي هوشع بعاهرة لم يجد غير الاشارة الى أمر الرب بأن يتزوج « زوجة زنى وينجب أولاد زنى لان البلاد اقترفت زنى عظيما »(٧). وارتبط عذاب هوشع بخيانات زوجته بحالة اسرائيل . وعمد حزقيال بعده الى حلق شعره (رمز القوة وحلقه رمز حدادي) وأكل الغائط . ودأب ارميا على تطويق رقبته بنير دابة وأحس بأن الرب قد اغتصبه كما تغتصب البنت البكر . وأوقع زكريا جروحا مؤلمة على بدنه .

ووجد الاثم تعابير متنوعة على لسان اشعيا : « صرنا كنجس وأعمالنا كثوب بال . لقد ذبلنا كالورقة وأصبحت آثامنا كريح تحملنا بعيدا » . وتتوالى الافاعي جنبا الى جنب مع مشاهد الموت والعدم وعتمة القبور وضباب الموتى . يجسم النبي اثم المجموعة قائلا « نفتش عن حكم بحقنا فلا نجد وعن خلاص لانفسنا فلا نصبه لان ذنوبنا استفحلت ووقفت تشهد ضدنا »(٨). هناك كثير من الشكوك حول كتابة سفر اشعيا ويذهب الظن الى ان أكثر من شخص قد كتبه . ويعطي ذلك صوره الذهانية الملتخولية صفة فولكلورية واسعة تعبر عن ضمير الشعب ككل .

وقد وصف فيبر الحالة النفسية للزعماء الروحيين بقوله : « الواضح ان الكاهن المعتاد في اسرائيل كان يجد نفسه في حالة توتر مستمر ويستغرق في تأملات كئيبة تصبح خلالها أتفه الاشياء اليومية العادية ألغازا مخيفة »(٩).

والواقع ان حياة شخصيات العهد القديم تطالعنا باستمرار بأعراض الطيرة والهلع والقلق والهوس والتوهمات السمعية والبصرية والاحلام والكوابيس والتصرفات الشاذة والانتقال السريع المفاجيء بين شعور بعظمة وأهمية وشعور بتفاهة وحقارة وأخيرا الشعور بحمل رسالة مسؤولية تجاه البشر واداء واجب المنقذ . كل ذلك من الاعراض العيادية المألوفة في الكآبة . وظلت الاضطرابات النفسية من مميزات زعماء اسرائيل من شاؤول الى شبتاي تزفي وأخيرا هرتزل . ويعطينا أبو الصهيونية نفس التذبذب بين القداسة والدناسة وتضم يومياته النتف المألوفة المعبرة عن الحقارة « نحن جنود رديئون لاننا عارون عن الشرف » . وأيضا « الجمهورية لا تصلح لنا نظرا لنقص أخلاقنا » . ويذكرنا بأفاعي اشعيا في مقطع يصور فيه اليهود بالعقارب(١٠) .

وقد بذلت محاولات اصلاحية للانعتاق من الدوامة حديثا في الكنيس الاصلاحي وقديما بدعوة ارميا ولكن الذهان والظروف الموضوعية كانت أقوى من ذلك فقدر